من أجل حُسن ثبات كنائس الله المقدّسة، إلى الربّ نطلب

الحديث الثالث ضمن سلسلة "تفسير القداس الإلهي"

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)
نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

فلنتابعْ تحليل نصّ القدّاس الإلهيّ. قُمنا في المرّة السابقة بدراسة الطلبة الأولى: "بسلامٍ إلى الربّ نطلب"، وتحدّثنا كيف أنّ المسيح هو سلام نفوسنا. إنّ حضور المسيح في حياتنا هو الأمر الوحيد الضروريّ لنا، إذ فقط بمعونة نعمة المسيح، يمكننا أن نصلّي، ونعمل، ونحيا بعامّة.

يُجيب الشعب (أو الجوق) طلبة الشماس ويقول: "يا ربُّ ارحم" (Κύριε ἐλέησον). عندما نقول "ربّي يسوع المسيح ارحمني" أو "يا ربُّ ارحم"، فإنّنا نعني بذلك: "امنحني يا ربُّ ما أحتاج إليه"، أي "أعِنّي... خلّصني... أشفق عليَّ... كُن رحومًا تجاهي... أنرني... أرشدني... اشفِني". جميع احتياجاتنا تشملها عبارةٌ واحدةٌ "يا ربُّ ارحم". إنّ هذه الكلمات تتضمّن كلّ شيء. تذكّروا ما يُخبرنا به العهد القديم عن الشعب اليهوديّ الذي فيما كان تائهًا في الصحراء، كان يتغذّى على المنّ، وصار المنُّ لكلّ واحدٍ من الشعب ما كان يحتاج إليه جسده. على نحوٍ مماثل، تصبح صلاة "يا ربُّ ارحم" تعبيرًا عمّا يحتاج إليه كلُّ شخص.

من الأنفع لنا أن نقول: "يا ربّي يسوع المسيح ارحمني"، من أن نقول لله: "اسمع، أعطني هذا وأعطني ذاك". علينا أن نودع ذواتنا بالكامل إلى الله في حياتنا اليوميّة كما في علاقتنا معه. بالطبعِ يمكننا أن نسأل الله أن يمنحنا أمرًا محدّدًا (إنَّ رغبةً كهذه مفهومةٌ تمامًا من الناحية البشريّة)، ولكن من الأفضل بكثيرٍ أن نثق بعناية الله ونطلب رحمته. يعلم الله ما نحتاج إليه وما ينقصنا، ويعرف متى يعطينا إيّاه وكيف.

ثمَّ يُعلن الشمّاس قائلًا: "من أجل السلام الذي من العُلى وخلاص نفوسنا، إلى الربّ نطلب". بكلماتٍ أخرى، "فلنسألِ الله أن يمنحنا السلام السماويّ والخلاص لنفوسنا". كما ترون، إنَّ الطلبة الثانية في الطلبة السلاميّة الكبرى هي استمرارٌ للطلبة الأولى، وكلتاهما تخبراننا كيف أنّ الربَّ بنفسه هو السلام للنفس البشريّة.

باشتراك الإنسان في النعمة الإلهيّة، أي قوّة الألوهيّة هذه الآتية مباشرةً من الله، يجد السلام فورًا. فأوّل ما تجلبه النعمة لنفوسنا هو السلام. ولذا فإنّ آباء الكنيسة عندما يريدون أن يحدّدوا إذا كان إنسانٌ ما

تحت تأثير النعمة الإلهيّة أو تحت تأثير الشيطان، يتفحّصون أوّلًا هل لديه سلامٌ في نفسه أو هو في حالة اضطراب. إنّ سلام النفس هو من أولى العلامات التي تشير إلى أنّ ما يحصل مع الإنسان هو من عمل النعمة. إذا كانت النفس ملأى بالاضطراب والقلق، يمكنكم في هذه الحالة أن تُدركوا على الفور بأنّ ذلك من فعل الشرير.

من المستحيل أن يسكن الله في إنسانٍ مليءٍ بالاضطرابِ والتشوّش المقلِق. لن يرتاح الله مطلقًا في قلب إنسانٍ كهذا. حين يكون الإنسان مضطربًا، ويكون كلُّ شيء داخل نفسه في حالةٍ من الفوضى، فإنّ النعمة تُغادره. لا علاقة لله البتّة بالاضطراب والقلق والهيجان.

إنّ "السلام الذي من العُلى" ينحدر من الله الآب ذاته، ولا يتوقّف على ظروف هذا العالم وأحداثه. لا يعتمد سلام الله على ما يجري حولنا وفي عائلاتنا ومجتمعنا والعالم أجمع – في أيّ مكان. بالطبع، ما من قاسمٍ مشتركٍ بين "السلام الذي من العُلى" وحالة النرفانا الهندوسيّة التي تسعى لبلوغ فقدانٍ للوعي لدى مَن يمارسها، وعدم مبالاةٍ بكلّ ما يحيط به. كلّا، فرَجُل الله يشارك في آلام البشريّة، ويتعاطف مع كلّ الخليقة ويشاطرُها آلامها. فالمسيحيّ ليس عديم الإحساس بأيّة حالٍ من الأحوال. من المستحيل أن تبقى في حالةٍ مُفترَضةٍ من السلام والهدوء عندما يوجد حولك الكثير من الألم. هذه ليست حالةً مسيحيّة.

مع ذلك، ما الذي يحصل مع رجل الله؟ مع أنّه يُشاطرُ الآخرين أحزانهم ويشاركهم آلامهم، وبالرغم من أنّه يكون في حالة المعاناة نفسها التي يعانيها العالمُ أجمع، فإنّ سلام الله يسود في أعماق قلبه ونفسه. يثق ثقةً كاملةً بالله، ولا يشكّ بأنّ الله سيقوم بما هو ضروريّ في نهاية المطاف، ولن يترك أحدًا. إنّ سلام حضور الله ينبع من يقين أنّ الله معنا ولن يتركنا حتّى آخر لحظةٍ من حياتنا.

في الطلبة الثانية، وإلى جانب السلام المنحدر من الله الآب، يدعونا الشمّاس لنُصلّي إلى الربِّ من أجل خلاص نفوسنا. ويجيبُه الشعب: "يا ربُّ ارحم". تلي ذلك طلباتٌ ذات طابعٍ أرضيٍّ أكثر في فحواها، وتتعلّق بحياتنا اليوميّة.

الطلبة الثالثة من الطلبة السلاميّة الكبرى هي: "من أجل سلام كلّ العالم وحُسنِ ثبات كنائس الله المقدّسة واتّحاد الجميع، إلى الربّ نطلب". بكلامٍ آخر، فلنسأل الله من أجل حلول السلام في العالم كلّه، ومن أجل أن تثبت كنائس الله، ومن أجل أن يتّحد الجميع.

نصلّي قبل كلّ شيء أن يسود السلام على الأرض، ونعني بالأرض الكنيسة وأيضًا العالمَ الخارجيّ والداخليّ، أي عالم النفوس البشريّة. عندما نُصلّي من أجل العالم الخارجيّ، فإنّنا نسأل ألّا تقع الحروب والكوارث والظروف المُحزنة والصعوبات، وهي حالةٌ لن تتحقّق أبدًا على نحوٍ كاملٍ بالطبع. مهما فعلنا، سيبقى هناك شرٌّ في بقعةٍ ما من العالم، ولا يمكننا تجنّب ذلك. مع ذلك، فإنّنا نصلّي من أجل سلام العالم

كلّه، ونسأل الله أن ينعم الناس بالسلام، وأن تكون أمورهم كلّها على ما يرام، وأن يكونوا فرِحين وفي صحّةٍ جيدة وهادئين، ولكن في الدرجة الأولى، أن يقتنوا نعمة الله.

إنّ سلام العالم أجمع هو حضور المسيح في قلوب البشر – هذا هو سلام العالم. جلبَ المسيحُ هذا السلام إلى العالم، لأنّه هو بذاته سلام العالم. رتّلت الملائكة عن هذا في ليلة ولادة المسيح: "المجدُ لله في العلى وعلى الأرض السلام". أتى السلام إلى العالم، وهو بالطبع ليس سلامًا خارجيًّا، إذ لم يوجد مطلقًا سلامٌ خارجيٌّ على الأرض، وكما تُظهِر الأحداث، فإنّ سلامًا كهذا لن يوجد أبدًا. مع الأسف، ستكون هناك حروبٌ دومًا في بقعةٍ ما من الأرض. إنّ السلام الحقيقيّ الأصيل – المسيح – أتى إلى الأرض واستعلن للعالم.

لذلك، فإنّ الكنيسة تُصلّي من أجل السلام بكلّ ما تعنيه الكلمة. ولاحظوا أنّها تصلّي من أجل العالم أجمع. إنّنا لا نُصلّي فقط من أجل جماعةٍ واحدةٍ من الناس، ولا حتّى من أجل الأرثوذكسيّين وحدهم، أو المسيحيّين وحدهم، بل نُصلّي من أجل العالم كلّه. جميع الناس هم إخوتنا، جميعهم أولاد الله، وكلّهم مدعوّون إلى ملكوت الله، ويجب علينا أن نُصلّي من أجل جميع الناس، لكي ينالوا سلام الله وحضوره في قلوبهم.

ثانيًا، نحن نُصلّي من أجل "حُسنِ ثبات كنائس الله المقدّسة"، حتّى تصمد كنيسة الله المقدّسة المنتشرة في كلّ الأرض، وتكون قويّة لا تتزعزع.

تعاني الكنيسة باستمرار من الهجمات الخارجيّة، وتتعرّض للتعسُّف والعداوة من تجارب وافتراءات وفِتَنٍ متنوعة، وما إلى ذلك. والمسيحيّون يكونون أيضًا على عداوةٍ مع الكنيسة من الداخل عندما يقومون بالانشقاقات ويبتدعون الهرطقات. والشيطان أيضًا على عداوةٍ مع الكنيسة. لذلك فإنّنا نصلّي لكي تحظى الكنيسة بالاستقرار وتتحلّى بالثبات والقدرة على الاحتمال. لحسن الحظّ، ما من خطرٍ بأن تسقط الكنيسة وتُسحَق: الله يحميها ولن تُسحَق أبدًا. ولكنْ، من الناحية البشريّة، علينا نحن البشر، أعضاء الكنيسة، أن ننهض ونقف بثباتٍ وندعم إخوتنا.

أتدركون عِظَم المسؤوليّة الملقاة على عاتقنا في هذا الخصوص، مع أنّنا غالبًا ما لا نفهم ذلك؟ إنّنا كأعضاء في كنيسة المسيح نحمل مسؤوليّة العالم أجمع، ومسؤوليّة إخوتنا وأقربائنا وجميع الناس – البعيدين عن الكنيسة والقريبين منها. وأوّلًا أولئك البعيدين. ففي نهاية الأمر، إذا ما أصبحنا حقًّا، وبمعونة الله، كما يريد الله أن يرانا، فإنّنا نستطيع بمِثال حياتنا مساعدة أولئك الأشخاص إلى درجةٍ كبيرة. للأسف، غالبًا ما تسبّب ضعفاتنا الموت الروحيّ للآخرين.

علينا أن ندرك أنّنا نُشكّل جسدًا واحدًا. إذا كان كلّ شيء "هنا وفي هذه اللحظة" يجري على ما يرام، فهذا لا يعني أنّ ما يجري في الكنيسة ككُلّ لا يعنينا. إنّ كنيسة الله موزّعةٌ في العالم أجمع، وثمّة بلدانٌ لا تزال الكنيسة فيها مضطهدةً إلى يومنا هذا. وحتّى إلى هذا اليوم، ما زالت الكنيسة تقدّم شهداءَ بلا انقطاع. البارحة مثلًا، أعلن مجمع الكنيسة البلغاريّة قداسة العديد من الشهداء الذين تألّموا خلال سنوات اضطهاد الكنيسة. في روسيا وألبانيا ورومانيا وصربيا وجورجيا، هناك الآلاف من الشهداء الجدُد. ثمّة شهداء جددٌ في الصين وفي دولٍ أخرى. لا تزال هناك دولٌ حيث الكنيسة مضطهدة والمسيح مضطهد، ومن المستحيل أن تبشّر بالمسيح وتتحدث عنه. بعض المسيحيّين دفعوا حياتهم ثمنًا لمعموديّتهم، وآخرون حياتهم في خطرٍ دائمٍ ويواجهون متاعب كثيرة. والكنائس أيضًا في هذه البلدان تواجه مصاعب لا تُصدَّق. في مرحلةٍ ما، كانت توجد كنيسة أرثوذكسيّة في الهند، مع أنّه لا يوجد تقريبًا أيّ أرثوذكسيّين هناك الآن. طُرِدَ الكهنة والمبشّرون الأرثوذكسيّون من الهند، وبقي قليلٌ من الكهنة الأرثوذكسيّين الهنود الذين يحاولون سرًّا أن يحفظوا رعاياهم وكنائسهم. يحارب الشيطان الكنيسة في العالم. لذلك فإنّنا نصلّي في القدّاس من أجل "حُسن ثبات كنائس الله المقدّسة".

يسألني بعضهم هل أشعر بأيّ اختلافٍ بين حياتي في الجبل المقدّس وحياتي الآن في قبرص. عادةً ما أجيب هكذا: عندما عشتُ في الصحراء في الجبل المقدّس، وكنتُ مبتدئًا مع الشيخ يوسف، عرفتُ بالخبرة كيف يحارب الشيطان الإنسان. وكنت أعرف ما الذي كان يجري معي في تلك المعركة. حين أصبحت أبًا روحيًّا، ثمّ رئيس دير، تعلّمتُ من خلال الاعترافات نوع الحرب التي يشنّها الشيطان على الناس الآخرين. وحين أصبحتُ مطرانًا في قبرص، رأيتُ عندها كيف يحارب الشيطان الكنيسة. وإنّي أشهد لكم على أنّ أقسى حربٍ يشنّها الشيطان هي ضدّ الكنيسة.

بسبب مكائد الشيطان، ينقلب رأسًا على عقب كلُّ ما نخطّط للقيام به من أجل الكنيسة. حتّى أبسط الأمور، مثل طباعة منشورٍ صغير، يستحيل إنجازها مرّةً واحدةً وانتهى الأمر، إذ ستظهر بالتأكيد مختلف أنواع المعوّقات والمشكلات؛ وسيُطبع المنشور مائلًا ومقلوبًا. كلّ الأمور ستعاكس هذا العمل. لتحقيق أمرٍ ما، عليكَ تخطّي المقاومة الشديدة التي ستواجهها. قد نرغب مثلًا في بناء كنيسة. لا يمكنكم أن تتخيّلوا كمَّ الصعوبات والتجارب التي ستواجهنا! وعندما ينتهي بناء الكنيسة، سيُنظر إليها كمعجزة، ولكنْ وهي ما تزال قيد البناء فإنّ الصعوبات والتجارب ستنتزع منكم روحكم.

كم من أمورٍ في العالم تجري بسهولةٍ كبيرة! تُبنى منازل جديدةٍ وتكثُر هذه المنازل مثلما ينمو الفطر ويتكاثر! كم من المطبوعات العالميّة الرائعة تخرج من المطبعة دون أدنى مشكلة! أما في الكنيسة، فأيًّا يكن الأمر الذي تقوم به، فإنّ خططك تتحقّق ببذل الكثير من العرق والدم لتخطّي صعوباتٍ كثيرة. تجاهد جهادًا

عظيمًا وتواجهك مقاومة شديدة – من الشيطان نفسه ومن أناسٍ ضعفاء النفوس. يتطلّب الأمر عملًا عظيمًا والكثير من الصلاة من أجل كنيسة الله، لكي تمتلك القوّة والجلَد والازدهار فتحقّق مهمّتها وتعلن كلمة الله في العالم.

بعد ذلك، يصلّي الشمّاس من أجل الوحدة أو "اتّحاد الجميع". في المجتمع المعاصر، تُستخدم كلمة "اتّحاد" بكثرةٍ مؤخّرًا. ولكنَّ ما يعنيه المجتمع بكلمة "اتّحاد" يختلف عما تعنيه الكنيسة. ليس مفهوم "اتّحاد الجميع" مشابهًا للسَّلَطة التي تختلط فيا جميع المكوّنات في وعاءٍ واحد. يعني "اتّحاد الجميع" أن يتحوّل جميع الناس إلى المسيح ويتّحدوا معه في الإيمان الحقّ. هذه هي الوحدة الحقيقيّة. هذه هي الوحدة التي نتضرّع من أجلها في القدّاس الإلهيّ: أن يتحوّل جميع الناس إلى المسيح. وأمّا في المجتمع، فغالبًا ما تُفهم الوحدة على أنّها، مثلًا، اختزال كلّ شيءٍ في وعاءٍ واحد. غير أنّ ذلك ليس اتّحادًا بل مزيجٌ يفقد فيه الناس، وكذلك أممٌ بأكملها، فرديّتهم. فلنأخذ على سبيل المثال التعدّديّة الثقافيّة المشهورة. أولئك الذين كانوا معجبين بالتعدّدية الثقافيّة أدركوا في النهاية أنّ ثمّة ما في خطبًا هذه السياسة، وأنّه يجب على الجميع أن يهتمّوا قليلًا بفرديّتهم الثقافيّة.

يدور حديثٌ كثيرٌ اليوم عن الطابع المسكوني لوحدة الكنيسة. ولكن ماذا تعني وحدة الكنائس؟ أوّلًا، يجب القول إنّه لا توجد وحدة كنائس، لأنّ كنيسة المسيح واحدة، وهي الكنيسة الجامعة المقدّسة الرسوليّة. لا توجد كنيسة أخرى. فكيف نفهم الاتّحاد إذًا؟ نفهمه بأن يعودَ إلى حضن الكنيسة أولئك الذين ارتدّوا عنها، سواءٌ أكانوا كاثوليكيّين أم بروتستانتيّين أم شهود يهوه، أيًّا كانوا. عليهم جميعًا أن يعودوا إلى الكنيسة ويتّحدوا بها – هذا هو اتّحاد الجميع الذي تصلّي من أجله الكنيسة – وهو ليس بالطبع أن نرتمي معًا في وعاء "سَلَطة" واحد.

ثمّة صلاةٌ جميلةٌ في نصّ قدّاس القدّيس باسيليوس الكبير: "رُدَّ الضالّين وضُمَّهم إلى كنيستك المقدّسة الجامعة الرسوليّة". تصلّي الكنيسة من أجل أبنائها المرتدّين الذين انفصلوا عنها وانحرفوا عن الطريق المستقيم، لكيما يُرجِعهم الربّ ويعودوا فيتَّحدوا بكنيسة الله المقدّسة. هذا ما يتحدّث عنه القدّيس باسيليوس – وليس أن تفقد الكنيسة هويّتها وتصبح جزءًا من تجمُّعٍ لا شخصانيّ، فتصلَ بذلك إلى حالةٍ كارثيّةٍ لأبنائها، وللكنيسة ذاتها. لحسن الحظّ، قد أكّد لنا الربُّ أنّ أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة.

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2024). "For the Good Estate of the Holy Churches of God, Let us Pray to the Lord", *OrthoChristian.com*. Link.